الأكاديمي المصري عماد عبد اللطيف:

عن البلاغة بين العالم الواقعي والعوالم الافتراضية

أجرى الحوار: محمد العناز

في هذا الحوار نقترب أكثر من الانشغالات البلاغية وأسئلتها الراهنية عند الأكاديمي المصري د. عماد عبد اللطيف الذي يعد من الباحثين البلاغيين الجدد الذين برزوا في السنين الأخيرة بشكل لافت. فهو يدرس مادة البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة القاهرة. درس بجامعة لانكستر الإنكليزية وجامعة القاهرة. حائز على جائزة دبي الثقافية للحوار مع الغرب في دورتها السادسة، وجائزة جامعة القاهرة لأفضل رسالة دكتوراه في العام الجامعي 2008–2009، وجائزة طه حسين في الدراسات اللغوية والنقدية في مصر والعالم العربي، في دورتها الأولى، 2010. شارك في تأليف موسوعة جامعة أكسفورد للشخصيات الإفريقية البارزة، ويُشرف على ترجمة موسوعة أكسفورد للبلاغة. حاضر في جامعات مصرية وإنكليزية ونرويجية، ونشر بحوثًا أكاديمية بالعربية والإنكليزية، في مصر والمغرب والإمارات العربية المتحدة والبحرين والكويت وعُمَان وهولندا وبريطانيا وفرنسا. وله ثلاثة كتب هي: «لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن»، و«أنا كبير عائلة مصر: البلاغة والسياسة والدين في خطب السادات»، و«تحليل الخطاب البلاغي: أسلوب الالتفات نموذجًا». قدم محاضرة موسومة بـ«بلاغة الجمهور ومستقبل الدرس البلاغي» بجامعة عبد المالك السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، بدعوة من فرقة البحث في البلاغة وتحليل الخطاب التي يشرف عليها الدكتور محمد مشبال، التقينا به على هامش هذا اللقاء وكان لنا معه الحوار التالي:

محمد العناز مع عماد عبد اللطيف (القدس العربي)

■ كيف تقيمون وضع الدراسات البلاغية في الوطن العربي؟

■ **أظن أن الدراسات البلاغية العربية تعاني من بعض المشكلات الجوهرية؛ فهي ما تزال أسيرة التراث سواء من زاوية المادة التي تدرسها أو من زاوية المناهج والمقاربات التي تستخدمها. كما أن هذه الدراسات تولي جل عنايتها للنصوص العليا مثل الأدب ونثره وشعره والقرآن الكريم، وتتجاهل غالبًا نصوص الحياة اليومية التي لا تقل أهمية ولا بلاغة.**

ويرتبط بذلك حقيقة أن معظم هذه الدراسات تتمحور حول النص فتشبعه تحليلا في حين تُغفل عمليات إنتاجه وتوزيعه والاستجابة له، وهي بذلك غالبًا ما تدور في فلك التأويل وليس في فضاء الوظيفة والأثر البلاغيين. ومن ثَمَّ لا تُعنى بدراسة أنسقة العلامات المصاحبة للغة مثل الصوت واللون والإشارة، والتي قد تلعب دورًا أكبر مما تلعبه اللغة في إنجاز وظائف الخطاب.

■ هل وضع الدراسات البلاغية في الغرب مماثل لوضعها في العالم العربي؟

■ **لا أعتقد ذلك. فقد شهدت العقود الأخيرة تناميًا مذهلا للدراسات البلاغية الغربية من حيث الكم والنوع والتخصص. فقد ارتادت آفاقًا لم تكن يحلم دارسوها يومًا أن يلجوها مثل بلاغة صفحات الإنترنت، والبلاغة الجنائية، وبلاغة العوالم الافتراضية..إلخ. كما استطاعت أن تقيم تحالفات معرفية مع حقول جديدة مثل علم المعرفة والاتصال والأنثروبولوجيا وتحليل الخطاب. وللأسف فإن الدرس البلاغي العربي ظل معزولا عن معظم هذه التطورات؛ وربما يرجع ذلك إلى التصاق الدرس البلاغي العربي بالتراث وعدم الانفتاح على التطورات البلاغية المعاصرة، والتقدير السلبي الذي يحمله بعض الدارسين لبلاغة خطابات الحياة اليومية، والغياب النسبي للحريات الأكاديمية التي لا بد من توافرها لدراسات بعض الخطابات مثل الخطابين السياسي والديني.**

■ هل يمكن توسيع الدرس البلاغي ليشمل الحياة برمتها؟

■ **أظن أن هذا هو ما تنجزه النظرية البلاغية المعاصرة؛ فالبلاغة في بعض توجهاتها المعاصرة أصبحت علمًا عامًا للخطابات. وبذلك يجد البلاغيون لأنفسهم موطئ قدم في كل الأنشطة التواصلية التي يقوم بها الإنسان، ليس في العالم الحقيقي فحسب، بل حتى في الفضاء الرقمي. وقد أصبح من المألوف الآن أن تنجز مئات الدراسات في بلاغة الاقتصاد والعلم وصناعة الترفيه وغيرها، وذلك بالطبع إضافة إلى دراسة الخطابات العامة مثل الخطاب السياسي والديني والإعلامي وغير ذلك.**

■ ألا يعد توسيع دائرة عمل البلاغة إلى مواضيع غير مركزية وتوصف أحيانا بالهامشية وجها من وجوه السقوط في تيارات ما بعد الحداثة؟

■ **هذه ملاحظة ثاقبة. لقد كان من آثار فلسفات ما بعد الحداثة الاهتمام بالخطابات المهمشة أو التابعة ومحاولة وضعها في قلب الانشغال الفلسفي. وقد تأثرت بعض توجهات البلاغة المعاصرة خاصة البلاغة النقدية بفلسفات ما بعد الحداثة خاصة أعمال ميشال فوكوه. لكن معظم التوجهات البلاغية الأخرى التي تعمل على خطابات الحياة اليومية تتحرك في إطار حداثي، فهي معنية بشكل أساسي بدراسة الخصوصيات البلاغية لهذه الخطابات وكيفية عملها، ولا تكرس نفسها فحسب لإنتاج تأويلات لها كما هو الحال في التوجهات المتأثرة بما بعد الحداثة.**

■ وهل نحتاج نحن في الوطن العربي إلى ما بعد الحداثة في الوقت الذي لم نعش فيه حداثة حقيقية؟

■ **لدي موقف من معظم الكتابات العربية حول ما بعد الحداثة، التي وقعت في قبضة الموضة الفلسفية من ناحية، وسوء الفهم الناتج عن غياب الرؤية الشاملة أو ضعف الاتصال بالكتب المصادر والاعتماد على مؤلفات ثانوية أو مترجمة. وأظن بوجه عام أن السؤال ما بعد الحداثي لا يعني الكثير للعالم العربي المعاصر؛ فنحن لم نعش حداثتنا بعد. أما فيما يتعلق بالدرس البلاغي فكما قلت فإن معظم التوجهات البلاغية المعاصرة – ومن بينها توجه بلاغة الجمهور الذي أشتغل عليه – تتحرك في إطار عقلاني منهجي يستهدف إنتاج معرفة علمية منضبطة من ناحية وتحمل على عاتقها مهمة تغيير العالم من ناحية أخرى؛ فهي معرفة نقدية بحسب تصنيف هابرماس للمعارف.**

■ ماذا تقصدون ببلاغة الجمهور؟

■ **بلاغة الجمهور هو توجه بلاغي هدفه دراسة الاستجابات التي ينتجها الجمهور الذي يتلقى خطابًا جماهيريًا ما، ودراسة الدور الذي تعزز به هذه الاستجابات من سلطة الخطاب أو تقاومه. فموضوع بلاغة الجمهور إذن هو الاستجابات التي يُنتجها الجمهور أثناء تلقيهم للخطابات الجماهيرية التي تبثها وسائل الإعلام. وهي تُعنى بشكل أساس بالعلاقة بين هذه الاستجابات والسلطة التي يمثلها الخطاب الجماهيري أو يسعى لترسيخها أو إضفاء الشرعية عليها. والغاية الأساسية لها هي تقديم أدوات للجمهور تساعدهم على تطويع استجاباتهم أو تغييرها بما يحقق مصالحهم العامة وليس مصالح المسيطرين على الخطابات الجماهيرية. هذه الاستجابات الجديدة أو المعدَّلة يمكن التعامل معها بوصفها استجابات بلاغية، لأنها تُساعد على تحقيق أهداف الجماهير ومصالحها.**

■ وما هي الأسس النظرية والمعرفية التي تقوم عليها بلاغة الجمهور؟

■ **يأتي على رأس هذه الأسس النظرية أحد فروع تحليل الخطاب ويعرف بالتحليل النقدي للخطاب، وهو معني بدراسة العلاقة بين الخطاب والسلطة. كما أن هناك إفادة من بعض دراسات علوم التواصل المعنية بظاهرة المخاطَب النشط، الذي لا يتلقى الخطاب بشكل سلبي. وأخيرا تفيد بلاغة الجمهور من البلاغة العربية القديمة المعنية بإمداد المتكلم بمعارف تمكنه من إقناع المخاطب أو التأثير فيه، وذلك لأن بلاغة الجمهور تحاول تقديم المعرفة المضادة التي تمكّن الجمهور من التلقي الناقد لخطاب المتكلم، وإنتاج خطاب بديل أو مضاد.**

■ هل من أمل في توسيع دائرة الاهتمام بهذه البلاغة ليشمل الجمهور العادي في وقت ما زالت الأمية مسيطرة على الشعوب العربية؟ ربما لن تتجاوز هذه البلاغة الأروقة الأكاديمية.

■ **هذا تخوف مشروع. لكنني أثق في أن الإنسان –مهما كانت درجة تعليمه أو حتى كان أميًا – لديه عقل نقدي، ولديه حس يمكنه من تمييز الكلام الصادق من الكلام المخادع؛ ولديه قدر من الجرأة للدفاع عن مصالحه. لكنه يحتاج إلى المعرفة التي تنشط وتحفز ملكته النقدية، ويحتاج إلى التدريب على شحذ قدرته على التمييز بين الخطابات السلطوية التي تسعى للهيمنة عليه والخطابات التحررية التي تستهدف تعزيز حريته، ويحتاج أخيرًا إلى من يعزز من ثقته بقدرته على تغيير الواقع، من خلال قدرته على إنتاج استجابات بليغة.**

■ هل تستطيع البلاغة فعلا أن تحرر الإنسان وهي التي كانت تُستغل دائما لتضليله والسيطرة عليه؟

■ **هذا هو رهان مشروع بلاغة الجمهور. فعلى مدار قرون عديدة كانت البلاغة الغربية خاصة أداة يستطيع من يتقن استخدامها أن يسيطر إلى درجة ما على الآخرين. وقد ذكر جورجياس، وهو أحد أشهر معلمي البلاغة في تاريخ اليونان القديمة، في المحاورة التي خصصها أفلاطون لنقد البلاغة أن هؤلاء الذين يعرفون كيف يتكلمون، وكيف يُقنعون الجماهير يتمكنون من تسخير الجماهير لخدمتهم، ويمكنهم بسهولة سلب الجماهير ما تمتلكه. لا يزال الكثير من التصورات والتقنيات البلاغية التي قدمتها البلاغة القديمة مستخدمًا. وذلك على الرغم من أن المهمة التي كان يقوم بها الخطيب قديما (أعني إخضاع الناس لإرادته تمهيدا لاستغلالهم) أصبحت تقوم بها طائفة من التقنيين – مثل محرري الخطاب، وأخصائيي التضليل الإعلامي، وخبراء الدعاية، والمتحدثين بالإنابة، ورجال الدين الرسميين..إلخ. وبلاغة الجمهور هي محاولة لتخليص علم البلاغة من جزء من تاريخه وواقعه غير الأخلاقي من خلال تقويض إمكانيات استخدام اللغة للتلاعب بالجماهير، وجعل علم البلاغة في خدمة الطرف الأضعف في عملية الاتصال الجماهيري؛ أعني الجمهور، مستهدفة زعزعة هيمنة الخطاب ومنشئيه بحيث يصبح الجمهور ممتلكا بشكل فعلي لحرية الإرادة والفعل دون تعرض لخداع أو تضليل.**

■ كيف يمكن لبلاغة الجمهور أن تحرر وعي الجمهور العربي العادي؟

■ **أظن أن ذلك ممكن من خلال تطوير قدرة الجمهور على التمييز بين خطاب بلاغي سلطوي غايته التحكم في الجمهور والهيمنة عليه لصالح منشئه ويستخدم التضليل والتزييف والخداع لتحقيق ذلك، وخطاب بلاغي غير سلطوي غايته تحقيق اتصال حر. وتقديم معرفة قبلية للجمهور تمكنه في حال تعرضه لخطاب بلاغي ما من الكشف عن تحيزات هذا الخطاب ومبالغاته ومغالطاته ومفارقاته للواقع وتناقضاته الداخلية والأغراض التي يسعى لإنجازها. كما أنها تحاول أن تزيد من وعي الجمهور بطبيعة استجاباته وتدريبه على تطويعها بهدف إنتاج استجابات فعالة إزاء الخطابات المضللة.**

شهادة: للعُواءِ والمُتعةِ.. لا أكثر!

محمود خيرالله *

ـ1ـ

■ في العالم الثالث لا يولد الناسُ شعراء بالفطرة أبداً، بل يولدون عاديين جداً، ويتكفّل العالمُ المُحيط بترسيمهم شعراء، على الأقلّ، هذا ما حَدَث معي. بلدةٌ ليست قريبةً من القاهرة بما يكفي لكي تصيرَ مدينة، وأيام متقشفة تدهن كل شيء بالأسى والعذاب، البيوتَ القديمة والطرقات الضيِّقة والحيوانات الملطّخة بالقذارة، البشرَ الذين يئنون وهم يمشون ليلاً، ذاهلين أوكسالى، الإضاءةَ الخافتة التي تُطفيء بهجة الدنيا، هذه الطرقات كانت مُنبعجةً بما فيه الكفاية، لدرجة أن الحيوانات تعبرُها أسهل من العربات «الكارو»، التي كانت تهتزُّ بعنف حين تَمرُّ بطيئةً بين البيوت، الموتُ فقط كان يعرف كيف يمشي مسرعاً وهو يأخذ هؤلاء الناس. هنا في شبين القناطر، الفقرُ يجهِّز الجثث كي يحملها الموتُ إلى المقابر، الموتُ هنا يكفي نصفَ شعراء العالم، لكي يجدوا فيه ما يُكتب، ربَّما ـ لهذا السبب ـ كان أغلب صبيان هذه المدينة يكتبون ليدربوا حناجرهم على الفقد.

ثلاثةُ أرباع زملاء الدراسة كانوا يكتبونَ، قطاعٌ عريضٌ من طلاب المدرسة الثانوية وأصدقاء لأبي وإخوتي وأقارب لي كتبوا كثيراً، كانت طريقتُهم في المقاومة هي العمل على نوع ما من الشعر: الشبابُ يُهرعون إليه شغفاً بالفتيات الجميلات، الرجال يغرقون بخشوع في المواويل، كأنَّهم يقيمون الصلاة، النساء يرتدين السواد طوال الوقت، كأنَّهن ذاهبات دائماً إلى جنازة، ليس هناك أقسى من الشعر الذي يسيلُ على خَديِّ فتاة تبكي وهي تمزِّق ملابسَها خلف كلّ «نعْش»، ليس هناك أمرٌ من صَرخة ممطوطة ومفجوعة ومُعَذَّبة، أسمعُها في أذنيَّ الآن، وأنا أكتبُ هذهَ الكلمات.

تعرفُ المآسي كيف تتآمَر لتُفرزَ شاعراءها، أعترفُ أنني كنت محظوظاً لأن عدداً قليلاً من أبناء بلدتي لم يستطِع أن يُكمل طريقَه إلى الشعر، كثيراً ما شعرتُ أنني، الوحيد الذي نجح في الوصول إليه، واعتبرت ذلك جائزة كافية. كأنهم فوَّضوني لكي أمثِّلهم، وحين ألقي قصائدي تتلبَّسني كل هذه الحناجر التي لم تحصل على فرصةٍ واحدةٍ للصَّراخ، صرتُ فرصةً أخيرة لعواء بلدة كاملة.

دُلتني المآسي فتعرَّت أمامي من تلقاء نفسها كلَّما صادفتُها، دون أن أكون مضطراً للتشرُّد كي أراها، درتُ في القرى والنجوع لأعرف أصحاباً ثم أفقدَهم بعد أيام بسهولة، في المعارك اليوميَّة على ركوب قطار، أو عبور طريق سَريع، أو الوقوف في الطوابير، أعدادٌ هائلةٌ من الأصدقاء انتهكَ أعمارَهم في لحظة عمياء كهذه، منهم من ماتَ بين قطارَيْن، أحدُهما يمشي عكسَ اتجاه الآخر، كانت بقاياه تُغطى بالصحف، بعد أن يجمعَ الصغارُ ـ وأنا معهم ـ الأصابع والأشلاء المتناثرة من الجسد الغضّ. ذات مرة أخذ قطارٌ ذراعين كاملتين لصديق ومشى بهما إلى المجهول، فيما تعطلت الجنازة انتظاراً لعودة أطراف غائبة.

أول «بالكونة» في حياتي كانت شاشةً واسعة لهذه القصص، قضبانٌ سكك حديدية، وعامل تحويلة عجوز نائم دائماً ويُفضِّل أن يمشي مُتمهِّلاً كالضحايا حين يصحو، سرعان ما يعلو صوت صفير ليوقظني، أخرجُ لأرى جثة جديدة ويكون من السهل التعرف إليها من الملابس، رغم أن الدماء أعطتها لوناً زاهياً ومثيراً للغثيان.

منهم مَنْ حطمتهم الصخور، كأنَّ الطبيعةَ تختبرَ قدرتي على احتمال الفقد، أشعر الآن أنها كانت تدرِّبني على كتابة الشعر، بطريقة يصعُب تعلُّمها، أينما مشيتُ كان الموتُ يهزُّ ذيلَه أمامي، ويتركني معذباً بالفرجة عليه، ليس غريباً أن تهزَّ كلابُ الأسى ذيولها في كثيرٍ من قصائدي، كأنَّها تعايرني بقدرتها على الانتقام.

حتَّى مدرستي الابتدائية كانت مبنى قديماً مليئاً بالجُثث، في الأصل كانت محكمةً يسكنها العويل، قبل أن تحوِّلها الحربُ إلى مستشفى، احتفظَ زجاجُ نوافذها بدماء الجرحى والشهداء، في قطع «الشاش» الملتصقة به، مدهونة بالأزرق، كي لا تتعرَّض للقصف ليلاً، كنا صغاراً لدرجة أننا كنا نخاف النظر إلى النوافذ التي احتفظت برائحة الجراح والجُثث، بعدما صارت مدرسة ابتدائية، المدرسون لسبب ما كانوا يحترمون هذه الدماء المعلقة فوق رؤوسنا، قالوا إنها كانت دليلاً على نوع نادر من الكرامة، دون أن أفهم ذلك أبداً، بعضُ الأطفال أشاع أنهُ وجد أصابع جنود كاملة مقطوعة ـ وبحالة جيِّدة ـ في مخزن المدرسة، بعضهم تحدَّث عن مقبرة جماعية ـ تحت المدرسة ـ لجنود لم يجد الناس وقتاً لدفنهم في المقابر، الحربُ التي بدأت قبل مولدي بأربعة أعوام وانتهت وأنا أخطو في الثالثة من عمري غيَّرت الكثيرَ من حياتي، يكفي أنها جَعلتْ الموتَ أكثر ألفة من أي شيء آخر.

حتى الآن، لا أمرُّ أمام المدرسة المهدَّمة دون أن أشعر برعدة خفيفة، مُنتظراً أن تقومَ من تحتها جثثُ الذين دفنتهم الحربُ، أنا ابن مخلصٌ لهذا الكابوس، لا تصدقوا أن معركة أكتوبر كانت نهايتَها الفوز، فقد تحول النصرُ العسكريُّ السريعُ في الميدان إلى حضيض في الشوارع، بطيء وقاس، تذوَّقتُه مع ملايين المصريين، وأنجبتْ ثلاثةُ أطفال كي يتذوَّقوهُ معي، فأنا ـ رغم كل هذا الموت وربما بسببه أيضاً ـ لا أستطيعُ أن أعيشَ وحيداً.

ـ2ـ

ولدتُ لأبٍ من أصول سودانية صريحة، وأم بيضاء جميلة وفطرية إلى أقصى حدٍّ، عرفتُ باكراً كيف تكوَّن رجلاً أسود في مجتمع لم يتخلَّص بعد من عبوديَّته، سمعتُ بشراً كثيرين يسخرون ممَّن لون أبي، ويسبونه ونحن نمشي في الشارع معاً، كان يستمر في حديثه كأنَّه لم يسمعْ شيئاً، دون أن ينسى، كأزهريٍّ يخطبُ الجمعةَ طوال حياته، أن يقول لي «الكلابُ تعوي والقافلة تسير.. يا بطل»، كان أبي يلقِّنني أوَّل درس في المقاومة.

أينعم..، لم أولد شاعراً، لكنني ولدتُ وفي يدي كتاب، أتذكرني رضيعاً يعضُ مجلات قديمة وحوله بشرٌ يضحكون، كبرتُ بجوار مكتبة ضخمة في بيت أبي، قطعة خشبية طويلة تعود إلى أربعينيات القرنّ الماضي، حين نجحتُ في الثانوية العامة خصصها أبي لي، كنتُ بدأتُ أقرأ بنهم، وأشتري كتبا من قروشي البائسة، شممتُ دائماً روائح قديمة في هذه المكتبة، أتذكر أنني مرة جلستُ فيها لكي أرتبها، سمعتُ أصوات جدي وجدتي وشممتُ بعض روائحهما، كان اسمها «واطفة» وتزوجت جدي لأبي «عبدالفضيل»، وجاءا هاربين من فقر الصعيد إلى القليوبية، أوائل القرن العشرين، هو في الأصل كان يسكن «أبنوب الحمَّام» التابعة لمحافظة أسيوط، وأجداده جاءوا في هجرة سودانية قديمة، لم أتمكَّن من تحديدها بدقة أبداً، رغم أنني عرفتُ عشرات السودانيين في القاهرة والخرطوم، وزرتُ «مَلكال» و«الأبيض» و«أعالي النيل» ومددتُ يدي في نهر «السوباط» ورأيت جنوبيين وشماليين يشبهون أبي كثيراً، وتأكدتُ أن أجدادي البعيدين ولدوا هناك دون أن أعرف متى أو أين.

لكنني اكتشفت أن حبَّ القراءة مذهبٌ سودانيٌّ أصيل، عرفتُ أصدقاء كثيرين اكتفوا بقراءة بقايا كتب قليلة ثم توقفوا للكتابة، اعتقاداً منهم أن حياةً واحدةً كفيلة بصَناعة كاتب، ظلَّ بعضُهم يأخذ كتبي على سبيل السَّلف، وأنا أعرفُ أنَّه لن يفيدَ منها، كان يكتب روايات مُتشابهة عن بطل واحد، يُعاني الأسئلةَ والهمومَ نفسَها، ويأسَف لأنَّ أحداً لا يريد أن يعترف بوجوده، متعةُ القراءة كانت عصيَّة على هؤلاء.

أمي التي لم تكن تجيد القراءة ظلت حكَّاءة مثالية، شعرتُ دائماً بالخسارة حين أخرجها أهلها من المدرسة بعد عام واحد، لكنها رأت في تعليم أولادها تعويضاً مناسباً، علمتني أمي أن أغني منذ الصغر، كان لها صوت رائق وملامح «فيروز»، كنتُ محظوظاً بإحساس أمي السليم ووعي أبي، ولم أكن بحاجة إلى أكثر من ذلك، كي أكتب الشعر.

كنتُ صبياً يُحب الحركة ويجد ضالته دائماً في المشي، أنا وزملاء الدراسة كنا نتجول بين الحقول لساعات طويلة، لنجد أنفسنا في قرى مجاورة، لها نساء جميلات لا يخجلن من ملابسهن الخفيفة، ذات مرة ذهبنا لشراء الخبز ظهر نهار رمضاني، ثلاثة طلاب في التعليم الثانوي يطلبون الخبز، لسبب ما كانت الأرغفة ملقاةً على الأرض، مثل الأحذية، وعلى الجميع أن ينحني ليلتقطها، امرأة منهن كانت تنحني بصدر مكشوف ملتهب كالأرغفة، تساقطنا فوقها دون أن نعرف ما الذي يمكن أن يحدث، ففي هذه اللحظة بالذات يولد شعرٌ كثير ويتعتق في الذاكرة، حتى إذا صببتُ شيئاً منها في الشعر، تدلَّى ـ دون شك ـ في قصائدي.

أحببتُ في الجامعة مرتيْن، كان هاجس أن الناسَ تدخل الجامعة فقط لكي تحب يسيطر عليَّ، التجربة الأولى كانت مُجهضةً وسريعة، كأنها بروفة، أما الأخرى فكانت على النقيض تماماً، ناجحةً وطويلة ومؤثرة، أنجبنا أطفالاً بعد سنوات من اللقاءات في الحدائق والميادين وعربات المترو، بعد معارك مع الأسرتين، ظلت تجربةً كبيرةً بما اتسعت له من لحظات «حُب» ولحظات «أسى»، عشتُها كأنني أناضل، كنا طلاباً في جامعة عين شمس، أوائل التسعينيات، مخبولين تماماً ومنفتحين إلى أقصى حدّ، وسط عشرات من قصص الحب كنا أول من تزوَّج ونجح في الانتقال من عصر الحدائق العامة إلى الغرف المغلقة والأطفال والإحساس بالمسئولية الاجتماعية تجاه آخرين، سرعان ما سوف يتعلقون في رقبتي، كافحتُ طويلاً لكي أحافظ على البيت الذي بنيته لعائلتي، جعتُ وتمردتُ واستلفت، عملتُ ـ مستنداً إلى تراث أبي ـ مُصحِّحاً لغوياً في صحف صدرت لأيام وأخرى لساعات وأخرى لم تصدر أبداً، كان أصدقاء الجامعة يتساقطون في قصص الحب مثل أوراق الخريف، وخلال عام واحد كانوا يقولون لي إنني الوحيد الذي أفلح، ومرة أخرى شعرتُ أنني وصلت سالماً للشعر، لأن ذلك حمَّلني عبئاً إضافياً، كأنني حررتُ الميدان الذي تساقط فيه عشرات الجنود بمفردي، وقد كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، أحدُهم تزوَّج حبيبته في السرِّ ثم طلقها في العلن، نزولاً على رغبة أسرتها، كان كأنه يخلع قلبهَ ليعطيه هدية لأعدائه، ولم يعد ممكناً أن يجدَه بعد ذلك أبداً.

ـ3ـ

أستطيعُ الآن أن أعترفَ أنَّني جعلتُ بَشراً كثيرين يكرهونني، كنتُ صفيقاً في لحظات كثيرة، خيَّبتُ ظنونَ الكثيرين وتقريباً خُنتُهم، أسأتُ الفهم ودفعتُ الكثيرين لإساءة فهمي، عرفتُ أصدقاء طيبين حاولتُ أن أكونَ مثلهم، لكنني عرفتُ آخرين تعلَّمتُ أسوأ ما فيهم، استلفتُ أكثر مما سَلَّفت، أهنتُ أكثر مما أهَنت، حاولتُ كثيراً الحصولَ على حقي مهما يكن الثمن، وقليلاً ما وفقت في ذلك، بعض الحقوق التي ضاعت مني عوَّضتها في القصائد، فمنذ وقت مبكر وأنا أدرك ما في الشعر من قدرة على التعويض، دخلتُ معارك وخرجتُ مجروحاً ودخلتُ أخرى وخرجت شارباً من دماء ضحيَّتي، صدَّقوني الشعرُ لا يُمكن تصوُّره في مكانٍ آخر أبعد من ذلك.

* شاعر من مصر

تحتَ سَماءِ الخُطوط

محمد بنيس

ذلكَ اليَوْم

عيْنٌ منّي قريبةٌ
رغْمَ السّنوات الّتي مضَتْ
لمْ تغبِ العيْنُ عنْ ذلكَ
اليْوم إذ قالَ لي
خُذ
الشّمسَ بيْنَ كفّيْكَ

مُضطرباً نَظرتُ
كانتْ دواةٌ منَ الفخّارِ وفي مُخيّلَتي خُطوطٌ
تتسابقُ

ذهاباً وإياباً في حَاضرٍ أتشمّمُ الصّمْغَ
وهْوَ يسيلُ
حُروفاً

أخذتُ اللوْحَ ممّنْ هو الآنَ ميّتٌ
خُطوطٌ
تتبادلُ الضّحكَاتِ
قبلَ أن أنامَ
يدُهُ في الصّمتِ ترْمُقُني

كلّ وَاحدٍ منّا

بينَ القلم واللّوْحِ نكَاحٌ كتبَ
هممْتُ بأنْ أشدَّ بصَري إلى سَماءٍ
يصعُبُ تأويلُهَا

في الورقةِ كَتمتُ الذي لا يخْمدُ شبَحٌ
صَارَ ألْطفَ
امّحَتْ صورةٌ وصورةٌ أخْرى

سيّدَ الخُطوط نقّلْني
بينَ ضفَافكَ
كأنني أخَاطبُ شخْصاً غيرَ معْروفٍ
لكنّ عيْني تتشبّثُ بالذي كانَ
ينْفذُ إلى الخطوط
مُلْغزاً رُبّما عليّ كانَ يُنادي
من ضفّةٍ أبعدَ ممّا توقعتُ

في الشّطْحِ
يُبصرُ كلّ واحدٍ منا سواهُ

لقاءٌ خلفَ الظلالْ

زَوغَان

ثمةَ نشيدٌ فوقَ اللّوحةِ ينْداحُ
تلمسُ اليدُ ذاكرتهَا
قريباً بعيداً
تقودُ نحْوَ جهَةٍ
لن تتعرّفَ فيهَا الخطوطُ أبداً علَى ذاتهَا

ابْتهَاجُ يدٍ
تخطّ حروفاً عربيّةً في
شكْلِ
سُطورٍ تائهةٍ
طريقُهَا الرغْبَةْ

يقعُ النّظرُ
على امتدادٍ لاَ وجود لهُ
إلاّ في غبْطةِ الرّاقصِ

سطورٌ في سطُورٍ يَتلألأُ
الفراغُ
من حركة افْتتاحٍ
مَركزُها يغيبُ

هواءُ النّفَسِ
ذبْذبةٌ مَحْجوبةٌ
تنصتُ العيْنُ لنَشيدٍ يذوبُ
شيئاً فشيئاً تغيّرُ الأشكالُ النظرَ
لاَ خُضوعْ

منْهَج

مدادٌ
طيوبٌ أبحثُ عنْها
في ثنيّات ورَقٍ صقلتْهُ
رياحُ الحِذْقِ

ذهَبٌ للكلماتِ الأولَى
مَكسُوّاً بحُلْمِ اللاّنهايةِ
أوْ أعْلَى
يظلّ مِنْ أيّ عُلوٍّ

حُروفٌ وحدهَا تعبُرُ الليلَ
أمواتٌ يتوافَدونَ كأنهمْ زائرُونَ

لاَ مَزارَ

تحيةُ كَلمةٍ هيَ الصمتُ
رقّقْها
افْتحْ لهَا الأزْرارَ
دعْها تدخلُ يدكَ
منْ نافذةٍ لا أحدَ يصلُهَا

سُموم

يدهُ المقطوعةُ يدُ
مَنْ أخْضرَ الجمالَ
سُمومُهُ غيرُ قاتلةٍ مهْما
عظُمتْ أسماءُ الذينَ لمْ
يَقْوَوْا علَى النّظرِ

سِرْ تحتَ سَماءِ مَا كَتبتْ هَذه اليدُ
لا تخشَ أنْ تأخذَكَ ظلمةٌ

أوقدْ شمْعةً
فوقَ قبرٍ تظنّهُ واقفاً
حدّ الصّراخِ

دمٌ يُعِيدُ ذاكرةً إليْكْ

هيَ بصرُكَ
يقرأ مَا في الكلمَاتِ
ننساهُ
المُسْتحيلْ

سَوَاد

أوَ كلّما وقعَتْ خطوطٌ
على خُطوطٍ
في مَجازٍ يسْرقُ الأبصارْ

إذْ أنّني في وَاحدة منَ اللّحظاتِ لمْ أتبيّنْ
ما يُمسكُ بي
مُرتجفاً عاودْتُ النّظَرَ
ثمّ
لاَ هُناكَ

هذَا الذي يُحيّرُ اصْطَحِبْهُ
غمْرُكَ
اصْعَدْ مَنازلَهُ
أعناقٌ تلتوي منْ غيْرِ أن يعْلمَ أحَدٌ

في الصّمتِ اسْتجْمعْ قُواكَ
حضْرةُ مَنْ تفترضُ أنّهُ الأرفعُ
فوقَ كرسيٍّ هزّازٍ كمَا
في
الشّرايينِ دمٌ يجْري

صَمتُكَ العزيزُ
يظهرُ منْ وَراء غَمامةٍ
لا أنتَ أنتَ
لا هُوَ هُوَ
انخفاضٌ في الحَواسّ يتهيّأُ

خَرساءَ تظلّ النفوسُ أحْياناً
عندَ مادّةٍ
سوادُها يتبدّلُ انْظُرْ
إلَى مربّعٍ
يقتنصُ شغفَ
مَنْ في الخُطوطِ لاَ يتثاءَبُونْ

اسْتتَار

في هَامشٍ بضعُ أبْياتٍ
هيَ الصّورةُ
كادَ العجُوزُ أن ينْسَى الأيّامَ التي كانَ فيهَا
يتنازلُ عنْ العيدِ
مُقابلَ بقيّةٍ منَ اللّذّةِ
في أصَابعهِ المدْبوغةِ بالمدَادْ

يدٌ تُقلّبُ الصّفحاتِ
باحثةً عنْ نُقطةٍ
عندهَا اللّيلُ يلتقي النّهارَ

عيْنُ العجُوزِ ترفرفُ
الفراغُ
أبْينُ ما أصَابَ الصّفحةَ
مثلما الصّفْحةُ أصابتِ العينْ

هواءٌ يسْتترُ
أنفاسٌ
لصُورةٍ منْ سَمائهِ – الوحْدَةْ

دمٌ

مَا الذي يُجرّدُكَ اللّيلةَ

لمْ يكنْ تحتَ بصَري غيرُ مخْطوطةٍ
بدّلتِ القرونُ
مَصيرَهَا

معَ ذلكَ أحْمرُ الخطُوطِ
في هَامشٍ

دمُكَ أيّها الصّديقُ باقٍ هُنا
يُكلّمُ مَن اسْتطاعَ
أنْ يراهُ

ساهرٌ علَى حافّةِ الدّمِ
مُمسكٌ برأسي
حتّى لا يسقُطَ كحَجرِ صلْدٍ في
مُسْتنْقَعِ عدمِ الاكْتراثِ

شُعَلٌ هذه الخطُوطُ
انْعدَمتِ الهيْئةُ
أو امّحتْ تمَاماً

شكْلُكَ
اخْتفَى

إلاّ علَى الساهرينَ في
مَضايقِ الفُقدانِ
لا يكُفّونَ عن النظرِ
إليْكَ
دماً
أوْلَى منْ أيّ أبّهةٍ ليْستْ
لهُمْ

في
ريَاحكَ
كرْكَراتُ
الخَلق